صوت المرأة المسلمة

العدد : ٢٠٨ الموافق في ذو الحجة ١٤١٩ هجري ٤ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : على هامش حلقات " المرأة وجهنم "	بقلم : يمان السباعي

اتصل بي بعض الإخوة يشكرون دفاعي ومفهومي الخاص الذي ورد في الحلقات الخاصة بموضوع " المرأة .. وجهنم " ، وتركز كلام هؤلاء الإخوة على سرورهم بالكشف عن بعض ما تعانيه المرأة المسلمة في مختلف المجتمعات العربية التي نعرفها ، داخل بلادنا وخارجها .. إلا أنهم أصروا علي في التزام العدل في قضية المرأة .. فعدا عن أن أحدهم وصفني بـ " الفيمنيزم " - وهو التعصب للمرأة - ، فقد قال لي آخرون أن هناك نساء تنطبق عليهن أوصاف ، تجعلهن جديرات بعقوبة النار على الوجه الذي ورد في الحديث النبوي الشريف .

وقد وعدتُ هؤلاء الإخوة بعد أن أكدت أنني لست من " أنصار التعصب للمرأة " .. أن أكتب للرائد ، التزاماً مني بالعدل والصدق !! .

وأخذت القلم والورق .. وجلست لأكتب عن النساء ذوات السلوك غير المنضبط مع الأزواج والأولاد .. وأجهدت فكري حيناً ، لأستحضر في ذهني صورة امرأة ظالمة ، أو سيئة الأخلاق ، أعرفها شخصياً ، أو حتى سمعت عنها ، فلم أجد غير بضعة نساء ممن اشتهرن بسوء الخلق ، وحب الأذى ، و كفر العشير ، وكثرة اللعن .. التي هي عنوان عريض لعدم الرضى ، أو على وجه الدقة السخط على كل شيء ، ومن كل شيء . ولكن هؤلاء النساء لا يُعتبرن ، في مجموع الكثرة الغالبة من النساء المغلوبات على أمرهن ، واللاتي يُلعَنَّ بسبب ودون سبب ، ويؤذين في أنفسهن وفي ذويهن ، ويساء إليهن كما يساء فهمهن، ويكفر الزوج عشرتهن وجُهدهن وجهادهن في بيوتهن ليلاً ونهاراً.

أما صورة المرأة الناشز ناكرة العشير ، المؤذية لزوجها ، الشاذة في أخلاقها فقد كانت ودائماً ذلك المثل الذي تقدمه لنا وسائل الإعلام في مختلف الدول العربية وليس إلا أن تراقب مسلسلاً " " كحمام القيشاني " الشهير ، أو حلقات " " مرايا " الأكثر شهرة .. لنرى المرأة ودائماً .. في تلك الصورة القبيحة من السيطرة ، والنفاق ، وسوء المعشر ، وموضع الاتهام الدائم !

***

نعم... لا بد من الاعتراف بأن بعض المواقف من بعض النساء ، أو من كثير من النساء ، في ملابسات وظروف معينة ، كانت مثالاً لقلة الأدب ، أو قلة في الذوق واللياقة السلوكية .. أو فيها الكثير من الأذى للأزواج والأولاد ، ولكن هذا لا يعني بحال من الأحوال أن هذه الشريحة التي عايشتها من

النساء هن من الناشزات ، بمعنى النشوز الفقهي الذي يفهمه الفقهاء ، وليس النشوز الاجتماعي الذي لا يحسن تعريفه أحد !! وينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا أن نسبة هؤلاء النساء إلى عامة النساء ، كنسبة أشباههن من الرجال إلى عامة الرجال !! .

كما يجب أن نعرف أن معظم النار من مستصغر الشرر ، وأن تراكم الأخطاء ، يولد التشاكس والنفور .. وكثير من النساء لا ينتبهن إلى أخطاء فادحة في سلوكهن ، أو أخلاق ذميمة في معاملتهن للآخرين ، وعلى رأس ذلك ، الكِبرَ ، الذي لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل منه !!

كم من امرأة تختال على الزوج بجمالها وتجعله صغيراً في عين نفسه بسبب ذلك ؟ وكم من متكبرة لحسبها أو مالها ، أو مكانة أسرتها .. وكم من زوجة تذكّر زوجها - دونما ذنب جناه - وفي كل حين ، بأن سوء حظها هو الذي جعلها زوجة لمثله ، وهو الذي لم يستطع الارتقاء إلى مستواها الرفيع !! .. وهذا بالطبع يختلف عن شعور الزوج بالنقص أمام زوجة تنتسب إلى أسرة تفضل أسرته ، أو تحمل من الشهادات العلمية ما يفوق درجات تحصيله .. فإن بعض الرجال وإن صمتت المرأة وترفعت عن المقارنة ، لا يصمتون ، ويقتصون منها لمجرد ذلك ، ويجعلون من امتهانهم لامرأة كهذه ، وسيلة لإشعارها بالمذلة والضعف ، ولإشعار أهلها بأنه لا فضل لهم عليه !.

ومن النساء من يغريهن ضعف الزوج أمام المرأة ، وطيب أخلاقه ، إلى درجة الاستسلام التام لها ، فيغريها ذلك بالاستطالة عليه ، واستعمال هذه القضية سوطاً يشهر عليه بالتمنع عنه بسبب ودون سبب .

كذلك فإن من النساء من فهمن قضية الأمومة على أنها مجرد وسيلة لحبس الرجل عليهن فلا يتزوج ثانية !! ومنهن من لا يعرفن من الأمومة إلا الحمل والولادة .. لكنهن لا يعرفن معنىً للعطف على الطفل ، ولا يرعين حقه ، ولا يرأفن بحاله ، عدا عن قسوة وشدة وعنف مع الأولاد ، وضرب مؤذٍ ، وشتائم مُهينة ، مما يؤذي الأب والأبناء معاً !!.. ولكن هل يُنحى باللائمة في ذلك كله على المرأة وحدها .. أم أن لذلك كله ؛ إضافة إلى سوء الخلق ، خلفيات ثقافية واجتماعية وتربوية ، وقاعدة مختلة تحدد طبيعة العلاقة التي تربط تلك الأم بذلك الأب أصلاً ؟؟ .

وهناك نساء يتمتعن بشخصيات غاية في القوة إلى درجة تجعل الرجل إلى جوارهن صفراً على الشمال ! ولكن أي رجل ؟ حدثتني أخت عن أمها فقالت : تزوج والداي وهما في السنة الثالثة من الهندسة المدنية ، وبعد مُضي ستة أعوام كان لدى أمي ثلاثة أولاد ، وقد تخرجت من الجامعة ، بينما أبي ما فتئ يُراوح في السنة الأخيرة .. وقد أصيب بالإحباط ، فصار ينام النهار ، ويسهر الليل أمام الرائي ..

ولم يكن من أمي التي استطاعت نيل الدكتوراه بعد ذلك ، إلا أن حملتنا دون علمه ، وسافرت بنا إلى قطر وأرسلت له من هناك : أن إذا أحببت الحق بنا !!! فتخرج في خمسة أشهر ، ولحق بنا .. ثم عاد مرة أخرى ، فحصل على الدكتوراه ، ولكنه بقي يعيش ذلك الشعور بالنقص والإحباط مدة ثلاثين عاماً .

فمعظم النساء اللواتي اشتهرن بهذه السلوكيات لم يخترن هذه الطريقة في الحياة ، لأنها مخالفة للفطرة والطبيعة .. ولكنه تنكب الرجل عن القيام بمسؤولياته

ولا ننسى في هذا المقام - الذي أرغمت فيه على استعراض بعض مظاهر النشوز ، وكفران العشير من قبل النساء لا ننسى أولئك الأمهات اللاتي يؤذين أبنائهن أشد الإيذاء ، وعن طريق إخضاعهم لعواطف سمجة مبالغ فيها ، واستعبادهم بحقوق " أمك .. ثم أمك .. ثم أمك " !! هذا عدا عن السيدات اللاتي يتسلين بإشعال نيران البغضاء والحقد بين أولادهن وزوجاتهم تسلطاً ، وقهراً ، .. ولعل سلوكيات هذا الصنف من الأمهات ليست إلا نوعاً من ردود الفعل المتراكمة خلال أعوام طويلة ، كن قد عانين فيها من الإهانة والأذى ، ما جعلهن غير قادرات على التعامل بالمحبة والمودة .. وهذا لا يبرر بحال من الأحوال أن يقابل المرء الأذى بأذى الآخرين ، ويحرمهم من عطفه وتفهمه ،وكرم أخلاقه!

***

هناك نوع من النساء يعشن في مستنقع آسن من الكذب والنفاق والدوران وليس لنا إلا أن نسأل عن السبب الكامن وراء هذا النوع من الحياة ؟ ولا أجد في نفسي حرجاً أن أشير بأصابع الإتهام إلى الرجل أباً ، أو أخاً ، أو زوجاً .. فإنه لا يدفع إلى الكذب إلا الخوف ، ولا يحمل المرء على النفاق حتى في أتفه الأسباب إلا الضغط والكبت ، ولا يدعو إلى اللف والدوران إلا الحرمان .

ولو أردت الإتيان بالأمثلة لاستغرق الحديث عن هذه الظاهرة بين النساء خاصة ملفاً كاملاً من المآسي ، والقصص التي تؤذي النفس والمسامع كذلك .

إلا أنني وعلى الرغم من كل ما ذكرته - وأنا أتوخى العدل ، والذي ليس فيه شيء من المبالغة - فلا بد لنا من الاعتراف بأن هناك كذلك نساء متسلطات بطبيعتهن ، سيئات الأخلاق دونما سبب من زوج أو محيط اجتماعي معين ، ومعظم هؤلاء ينطلقن من داء غمط الحق ، واحتقار الخلق ، إضافة إلى جهل مركب يعمي ويصم ، فترى الواحدة منهن لا ترى أبعد من أنفها ، وكأن العالم كله قد انطوى على ما تعرف ، وتظن في نفسها الخيرية ، والعلم والحكمة والفهم .. ويشعر الزوج أمام امرأة من هذا النوع بالإحباط والإهانة ، خاصة في مجتمعاتنا حيث اعتاد الرجال أن يكونوا الأفهم والأحكم والأعلم ! ولا

يستطيع هذا النوع من النساء مراعاة هذا الوضع ، ولا فهم طبيعة تربية الرجل العربي الذي يُنشأ ويُربى على أنه السيد المطلق ، الذي يجب أن يطاع دون مراجعة ولا مشاورة ولا نقاش ! . فإذا كان هذا الوضع لا يُطاق بالنسبة للرجل الغربي ، فكيف هو الحال مع رجل عربي لا تعرف زوجته سوء الحال ، ولا تتفهم هذا المنطق ولا تعترف بهذا الواقع ، فتكبرها وانغلاقها على عبادة ذاتها يعميها حتى عن أخطائها ، وعن استبدادها بزوجها وأولادها .

إن هذا نوع موجود في كل المجتمعات ، وإنه ليؤسفني أن أقول : أنني رأيت الكثيرات من هذا النوع في صفوف الجماعات الإسلامية ، ممن استكبرن بحمل أمانة هذا الدين ، وتطاولن وتطاولن بشيء من فهم كتاب الله ، وغمطن حقوق الآخرين لمجرد ظنهن في أنفسهن الخير ، واحتقرن الناس لاقتناعهن بانحرافهم وسوء تدينهم .. وخاصة ممن تعلمن وضع المرأة في الإسلام ، دون وعي ولا فهم .. فاقتصرت علاقتهن بأزواجهن على مطالبة هؤلاء بتنفيذ الحقوق ، واستكمالها ، مما يصيب الرجل بالإنهاك المادي والمعنوي ، والاختناق الفكري ، وأعجب من ذلك أن معظم هؤلاء السيدات يعتقدن أنهن خير نساء الأرض لأزواجهن ، ومعظم هؤلاء الأزواج إنما خضعوا لهذه الأوضاع الشاذة رحمة بهن وبفهمهن القاصر لطبيعة الدين الإنسانية .

إن مثل هذا السلوك ليس إلا مغالاة في التفريط ، مقابل إفراط تعاني نتائجه معظم النساء مع رجال يُفرّطون في الحقوق ، ويُفْرطون في المطالبة بالواجبات .

***

لقد رأيت الكثير وسمعت الكثير في بلادنا ، وفي بلاد الغرب ، ففي سورية كنت أسمع وأشهد العجب العجاب مما كان يمُرُّ على أبوين مثل أبويّ وكلاهما يعمل في التدريس ، إذ كانا يشهدان ويسمعان من المآسي ما يدمى لها الفؤاد ، وكانا يضطران بحكم موقعهما في تلك الأيام - حيث كان المدرس أشبه بمختار الحارة - أن يحُلا المشكلات بين الأزواج ، وما ذلك إلا للتفريج عن الأبناء وعما كانوا يعانونه بسبب ما كان يجري في البيوت !! . لكن المأساة الحقيقية تجلت أمام ناظري بعد عشرين أو ثلاثين عاماً .. عندما أصبحت في مدريد وما فتئت حتى الساعة أسمع نفس القصص ، ونفس الشكوى ، ونفس المعاناة ، التي كنت أسمعها من الناس وعن الناس قبل ربع قرن في دمشق !!!

ولقد شهدت وعشت - عدا عن الذي سمعته عبر الهواتف - وخلال الأعوام السبعة التي كنت ألتقي خلالها بالأخوات في مسجد الجمعية الإسلامية ، من عربيات وإسبانيات ، سمعت وعشت وشهدت

مشكلات جالية حملت معها هموم وطنٍ ما زال يراوح مكانه في مساحة الألم الإنساني ، كما هو يوم تركته ، اللهم بعض التغيير السطحي والطفيف في عادات الطبقات التي تحسنت حالتها الاقتصادية .

الذي أريد قوله هنا .. أن اقتناعاتي لا تنطلق ، أو لم تنطلق أصلاً إلا مما رأيت وسمعت ، وإن الفقه المجرد المتقوقع ليس بفقه يرجع إليه ، فقد كان أبو حنيفة رضي الله عنه وأرضاه ، لا يفتي إلا بعد أن يَستفتي ، ويستقريء ، ويبحث في هموم الناس ومشكلاتهم الحياتية ! ، بل إن القرآن العظيم نفسه ما كان يتنزل إلا بعد حوادث معينة تستدعي نزوله ليحكي مشكلات الناس ، وأسس دراستها وفهمها وحلها ! .

إن كل ما نكتب ، وما نقول ، لن يكون له أي أثر ، ولا فعلٍ ، وقبل هذا وذاك لن يكون خالصاً مما يرجى به وجه الله ، إن لم يوجه لرفع الأذى عن الإنسان بالإسلام ، والأخذ بيده نحو حياة أفضل بالإيمان ، رجلاً كان أم امرأة .. فإنهما في ذلك يستويان .. إلا أننا نجد القرآن الكريم وحده - عدا عن السنة المطهرة - ما لا يقل عن مائة موقع أوصى الله به الناس بالمرأة ، وحفظ حقوقها وإنسانيتها ودينها ، ولم أجد موقعاً واحداً فيه وصية بالرجل .. لأن " الرجل قوام على المرأة " . وهذه حقيقة علمية اجتماعية إنسانية ، نفسية .. وليست قانوناً تعسفياً ، اضطهادياً ، يزدري المرأة وينتقص من حقوقها .

فخلاصة الأمر .. أن وضع المرأة المسلمة اليوم ليس في حاجة إلى مزيد من التنظير ، ولا مزيد من ترديد النصوص ، ولكنه في حاجة إلى الكثير ، بل الكثير جداً ، من نزول الدعاة من أبراجهم العاجية ، والاختلاط بعامة المسلمين ليكتشفوا بأنفسهم حجم مصيبتنا في مجتمعنا ، وفي أسرنا ، وفي إنساننا وليكتشفوا كذلك الشقاق النكد الخطير بين أصول شريعتنا ، وواقع إنساننا بشكل عام ، ونسائنا بشكل خاص ، ليكتشفوا أن صمت الناس عن هذا الواقع لم يكن إلا بسبب الخوف على المواقع ، أو الخوف من أن تصيب الشكوى العقيدة ، أو تتهم الشريعة - كما قلت في حلقة سابقة - وإنا لعمري لم نُؤت إلا من هذا الخوف المتربع على قواعد من الجهل ، وعلى قواعد من خشية الناس ومواجهتهم بما يكرهون ، وكما قال الأستاذ نبيل شبيب ذات مرة : " ومتى كان يُعجب الناس الحق ؟؟ إنه يوقظهم ويقضُ مضاجعهم ، فكيف يعجبهم ! ".

إن مثل عقيدتنا ، ومثل شريعتنا لا يضرهما انحراف الواقع ، بل إن انحرافه دليلنا الأكيد على البعد عنهما ، ونحن قوم لا ينبغي أن نستدل على الحق بالأشخاص .. ولا بالواقع ، ولكننا ننظر الواقع ، ونقوم الأشخاص من خلال الحق الذي لولاه لفسدت السموات والأرض .